وبعناصرهم وبيوتهم وما يملكونه وبما يأكلونه ويشربونه وبأجسامهم وأعضائهم وبكل ما يتصل
به من قريب أو من بعيد. ولا شك ثانية في أنه إذا جاز ذلك كله كان من الجائز سؤال الله
والتوسل إليه بكل مخلوق لا يعصي ربه لأنه من مخلوقات الله المطيعة له بالاختيار أو بالاضطرار
ولكل كرامة عليه عظيمة لديه يصح أن يتوسل به عنده ويسأل به لو كان هذا النوع من سؤال
والتوسل معقولا أو مشروعا: ولا يرتاب المسلم في أن القول الذي يؤدي إلى جواز التوسل إلى
الله بكل شيء عاقل أو غير عاقل وحي وغير حي قول باطل، يربأ العاقل والمسلم بنفسه عن الذهاب
إليه وعن القول به. فهذا النوع من التوسل والسؤال باطل شرعا وعقلا
ولذلك ثم يقال: التوسل بالشيء معناه التقرب به إلى الحاجة المطلوبة وإلى الغرض المقصود
المنشود فهل التوسل والسؤال بجاه الأنبياء والصالحين مما يقرب إلى الله أو مما يقرب الحاجة المطلوبة
والغرض المنشود المقصود؟ إن الجواب لا يعدو أن يكون بكلا. وذلك لأنه لا صلة بينك وبين
عقوبة الخالق فيه فهو الله جل لا يفعل شيئا ولا يقدم أو يؤخر فإذا سألت الله بجاه مخلوقه
كائنا من كان من ذلك المخلوق وحاولت التوسل به فقد سألت وتوسلت بأجنبي
غريب عنك وعن [illegible] تصوره فكيف يكون في سؤالك وتوسلك شيء من معاني الصواب
ولهذا تكون مدليا إلى الله بأمر تستحق عليه أن يعطيك وأن يبالي بك. فلا شك إذن في توسلك
وسؤالك بهذه الصورة. وهنا لا فرق بقولك: أسألك يا الله بجاه رسول الله أن تغفر
ذنوبي مثلا تريد به أن يغفر الله لك بسبب جاه رسوله عليه السلام وبسبب ذكر الله له
أو بسبب وجوده وحيوته ولكن كل هذا لا علاقة له بكونه سببا في غفر الذنوب أصلا
ولا بعض سبب. فإنه لا صلة بينك وبين هذا الجاه. وما مثل هذا إلا كقول القائل أسألك يا الله
بوجود أنبيائك ورسلك وبوجود عبادك الصالحين الأبرار أو أسألك بعلمهم وصلاحهم وتقواهم أو
بأخلاقهم أو بأسمائهم أو أتوسل إليك بوجودهم في مكان كذا وعصر كذا أو أسألك بوجود
السموات والأرض وبوجود المخلوقات كلها أو بعظم العرش والكرسي أو بجلال الليل
وجمال النهار وبضياء الشمس والقمر والكواكب وبنفائس الجواهر أو أسألك بعبادة الملائكة
وطاعتهم وطاعتهم إياك وبدأبهم على الخير والطاعات وبجودهم وكرمهم وأمثال
هذا. وهذه كلها أسئلة باطلة فاسدة تحقق ينكرها الشرع والعقل معا ويأباها
الشرعيون والعقليون جميعا. وهي مثل أن تقول لمن تطلب لديه حاجة من الحوائج: أسألك
يا [illegible] زيد أن تقضي مسألتي لأن عمرا صالح أو عالم أو تقي أو فاضل أو لأنه
موجود أو لأن اسمه كيت ولأن بلده كذا. فإذا سألته هذا السؤال كنت
مزريا بنفسك وعقلك وكنت معنتا في الضلال والشرود عن وجوه الصواب والحكمة
فسؤال الله بجاه المخلوقين من الأنبياء والصالحين سؤال فاسد لا معنى له ومحاولة التوسل
بهم ولا [illegible] منكرة منها [illegible] خالصة. كما يقول الراجح المنصف. ومن حيث إنه إذا ثبت ولكنه
من قال: إنه يجوز التوسل بالكائنات إلى الله والسؤال به؟ وكيف يصح هذا الضرب من التوسل والسؤال؟
ولو أنك تقدمت بهذا النوع إلى قاض أو حاكم أو مسؤول: فقلت مثلا: أسألك
أسألك بما ثبت أو أتوسل إليك بما ثبت لعيسى وموسى أو إبراهيم أو نوح أو محمد أو غيرهم من أنبياء الله
ورسله أن تقضي لي أو تفعل كيت أو كيت لكنت قائلا قولا لا يقره عليك أحد من العقلاء ولما كنت
آتيا إلى حاجتك وغرضك بسبب صحيح مقبول ولما كان ثمة فرق بين هذا القول وبين أن يقال القول
والسؤال بكل ما ثبت وبكل ما جد ومن قال: أسألك بالله بما ثبت لك من المخلوقات والموجودات وأتوسل
إليك كان غالطا غلطا لا ريب فيه ولا خلاف وإذا كان لا يجوز التوسل إلى الله بما ثبت له من ذلك
على وجه العموم والإطلاق فكيف يجوز التوسل إليه تعالى بما ثبت للأنبياء والرسل وعباده [illegible] على